

دراسات في كتاب الله
نشأة التفسير المدون



بقلم : عاطف حسن بسيوني

نزل القرآن الكريم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أول ما نزل، وهويتعبد في غار حراء، حيث صفت روحه أيما صفاء، واتجه الى الله يعبده قبل أن يعرفه ،وخضع للرحمن دون أن يرشده أحد الى الرحمن، ابتعد عن شباب الجاهلية وما يعبدون، وانتحى مكانا قصيا بعيدا عن الشيوخ وما يقدسون،أصنام حول الكعبة رابضة،وصخور تعبد، تصنع بالأيدي وتخضع لها الرؤوس.

لم يعجب محمدا ما يعبدون ، ولم يخضع لما يخضعون، ما عبد محمد صنما، ولا قدس محمد وثنا، فهذا هبل وهذه مناة، يلتف حولهما العابدون و يسجد لهما الساجدون، و ينأى محمد عن الذي لا يرضاه قلبه، ولا يحبه فؤاده ففر هاربا الى الله، في غار ليس فيه أحد و يسبح بفكره في الملكوت الاعلى باحثا عن الله و يرسل الله لمحمد رسوله الامين ،يضم محمداً الضمة تلو الأخرى، ثم يأمر محمدا بترديد ما يقرأ الامين فيردد «اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الانسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم» صدق الله العظيم.

ثم ينقطع الوحي فترة، فيشتاق محمد، ويخرج باحثا عن الوحي حتى جاءه الوحي، ثم تتابع نزول القرآن. وهنا نقف وقفة نتساءل فيها هل تفسير ذلك القرآن الذي ينزل منجما، كان ينزل أيضاً من السماء كما نزل القرآن« أم أن الله تعالى ترك ذلك لرسوله الأعظم صلوات الله عليه وسلامه الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، علمه شديدُ القوى.

واجابة هذا التساؤل هي حديثنا في هذا المقال:

تفسير القرآن في هذه الفترة من الزمن، وهي فترة وجود المصطفى بين المسلمين، وفترة وجود الصحابة **رضوان** الله عليهم أجعين حيث اغترفوا من معين محمد فساروا على نهجه في تأو يلهم للقرآن و بيان ما قد يغمض فهمه على اساطين البلاغة وحفاظ الشعر والمتمكنين من اللغة وغر يبها.

اذا اتجهنا ناحية اصله وأساسه نجد له ناحيتين: الأولى قبل أن يكون علما مدونا والاخرى بعد أن صار علما مدونا، وسوف نتحدث عن الناحيتين معا بادئين بأولاهما في هذا المقال، وهذه الناحية الأولى ترجع الى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهد

اصحابه اذ هو أعلم به وأوعاهم له وأفهمهم لمراميه ومقاصده، وهو في الوقت ذاته مكلف من قبل الله تعالى بتبيينه وتوضيحه، حيث يقول تعالى «ونزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم» فالرسول مسؤول امام الله عن تبليغ الرسالة الى الناس، جميع الناس، مسلمهم وكافرهم، طائعهم وعاصيهم.

وهذا ما يسمى بالسنة لأن السنة هي قول الرسول صلى الله عليه وسلم وفعله ورضاه واقراره لما يفعله بعض المسلمين في عصره، فالسنة توضح القرآن الكريم من ناحية العموم والخصوص والمطلق والمقيد والناسخ والمنسوخ والمنطوق والمفهوم وغير ذلك. وقد أفاض علماء أصول الفقه في الحديث عن هذه النواحي مما سنعرض له في مقالات قادمة ان شاء الله تعالى، بل قد اثبت علماء الاصول أن السنة لا تقتصر على بيان عمومة ومطلقه، وانما هي تخصص عمومه وتقيد مطلقه وتبين مجمله وتوضح مشكله.

أما غريب القرآن فلم يكن محتاجا بالنسبة لأكثر الناس في عهد الرسول وعهد الصحابة الى شرح وتوضيح لأن غريب القرآن هو غريب اللغة وهم أصحاب اللغة وفرسان ميادينها و بلسانهم الفصيح نزل القرآن، واذا قلنا (بالنسبة لأكثرهم) فانما نعني ما نقول لأنه قد ثبت أن بعضهم توقف في معنى بعض غريب القرآن فسأل عنه، فمن ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه حيث قال: «اذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوا في الشعر فإن الشعر ديوان العرب». وسأل رجل ابن عباس **عن قول الله جل شأنه:(وثيابك فطهر): قال لا تلبس** ثيابك على غدر، وتمثل بقول غيلان الثقفي :—

فاني بحمد الله لا ثوب غادر
لبست ولا من سوأة أتقنع

وقال نافع بن الأزرق لابن عباس : أخبرني عن قول الله عز وجل (لا تأخذه سنة ولا نوم) ما السنة؟ قال : النعاس قال زهير بن ابي سلمى :—

لا سنة في طوال الليل تأخذه
ولا ينام ولا في أمره فند

وغير ذلك :

وقد يقع لبعض الصحابة ان يفهم اللفظ العربي في القرآن الكريم على ظاهرة ، وقد لا يكون المعنى الظاهري مرادا بل المعنى على المجاز كما وقع لعدي ابن حاتم رضي الله عنه حينما نزل قوله تعالى:

«وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) فعمد الى عقال أبيض وعقال أسود ووضعهما بجواره وظل يأكل و يشرب حتى ميز بينهما عند ظهور ضوء الصباح. ثم ذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فبين الرسول له المعنى المراد بقوله عليه السلام: انما ذلك سواد الليل و بياض النهار.

أما ما ورد عن عائشة رضى الله عنها انها قالت :(ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسر من كتاب الله الا آيات بعدد علمه اياهن جبر يل) فقد حمله العلماء على تفسير المغيبات مما لا سبيل اليه الا بتوقيف من الله تعالى، ولا يحمل على اطلاقه الذي قد يستفاد منه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحتفظ في تفسير القرآن، فلم يفسر الا آيات معدودة جاءه جبر يل ببيانها، ولم يفسر ولم يوضح باقي آيات القرآن وهذا يكون مخالفا للنص القرآني الصريح : (وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم) ولزم ايضاً تحرج اصحابه من تفسيره والخوض في معانيه، **ولكنهم فسروا** ولم يتحرجوا وان كانوا قد ساروا على نهج الرسول فيما فعل. وقد يقال : إن الله بين أن من كذب عليه متعمداً أو قال في القرآن برأيه فعقابه شديد حيث روى ابن عباس عن النبي انه قال «اتقوا الحديث علي الا ما علمتم، فمن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ومن قال

في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» فهذا الحديث محمول على أنه لا يجوز للمسلم أن يفسر شيئاً من القرآن وهو يعلم ان الحق غير ما قال ،أو من يفسر شيئاً من القرآن على هواه دون استناد الى رأي الرسول أو الصحابة وهم الطبقة العليا في الفضل والذين استقوا العلم والحكمة من رسولنا فهم (أصحاب الشأن الاول في تفسير القرآن وغيره مما يتصل بالدين وأحكامه بعد رسول الله).

مراقب الصحابة في تفسير القرآن الكريم:

كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين متفاوتين في العلم بمعاني القرآن فقد ورد عن ابن عباس انه مكث سنتين يريد أن يسأل عمر عن الزوجتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يمنعه الا مهابته ثم سأله فقال له : هما حفصة وعائشة.

يشير سؤال ابن عباس الى قوله تعالى في سورة التحريم:

(إن تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما وان تظاهرا عليه فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير).

فلم يذكر المولى تعالى مرجع الضمير في (تتوبا) و (تظاهرا) فأراد ابن عباس ان يعرف مرجع الضمير فسأل عمر. ومن المعروف عند خاصة المسلمين ان القرآن نزل منجما على حسب الوقائع والحوادث فهو يقرر أحكامها، فقد تحدث حادثة في بيت تنزل بسببها آية فصاحب الحادثة يكون أعلم بها من غيره ثم يعلم الغير عن طريق النقل والسماع.

وكما كان الصحابة متفاوتين في العلم بمعاني القرآن فقد كانوا أيضاً متفاوتين في الاقبال على تفسير القرآن وتوضيح غوامضه فكان أبو بكر وهو اسبق الصحابة الى الاسلام واعظمهم للقرآن فهما وأكثرهم له تطبيقاً وأفضلهم عند رسول الله منزلة ومع هذا فكان أخوفهم من تفسير كتاب الله، وأكثرهم حذرا من أن يقول في القرآن برأي، استمع اليه حينما سئل عن تفسير (حرف) من القرآن اذ يقول : اي سماء تظللني ، وأي أرض تقلني وأين اذهب، وكيف اصنع، اذا قلت في حرف (أي كلمة) من كتاب الله بغير ما اراد تبارك وتعالى.

أما صدر المفسرين والمؤيد فيهم فعلى بن ابي طالب كرم الله وجهه ولعل ذلك راجع الى ملازمته لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومساكنته ومصاحبته فكان يأخذ من رسول الله ما لا يأخذ غيره و يتعلم من رسول الله ما لا يتعلم غيره.

وقال ابن عباس ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب.

وكان ابن عباس يلي عليا في الفضل في تفسير كتاب الله، وكان علي يثني على تفسير ابن عباس ويحض على الأخذ عنه، وكان علي يقول: ابن عباس كأنما ينظر الى الغيب من ستر رقيق، وكان ابن مسعود يقول: نعم ترجمان القرآن ابن عباس.

الا ان الاجماع مع هذا يكاد يكون منعقدا على امامة علي في هذا الشأن.

روى عامر بن واثلة قال: شهدت علي بن ابي طالب رضي الله عنه يخطب فسمعته يقول في خطبته:—

أيها الناس، سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء يكون الى يوم القيامة الا حدثتكم به، سلوني عن كتاب الله فوالله ما من آية الا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار، أفي سهل نزلت أم في جبل؟، فقام اليه عبدالله ابن ابي أوفى اليشكري الملقب بابن الكواء فقال : يا أمير المؤمنين (ما الذاريات ذروا)؟ ففسرها له.

وعن ابن مسعود انه قال : ان القرآن انزل على سبعة أحرف ما منها حرف الا له ظهر و بطن وان

عليا عنده من الظاهر والباطن. والمراد بالأحرف الكلمات التي تحتمل أكثر من معنى واختلف المفسرون فيها.

وقد تعرضنا لسبب شهرة علي بن ابي طالب في التفسير فما سبب شهرة عبدالله بن عباس في التفسير؟

ان السبب في هذا هو دعوة النبي صلى الله عليه وسلم له حيث قال: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل. فقد روى عنه في التفسير ما لا يحصى كثرة.

أما من يلي عليا وابن عباس في التفسير فهم ابن مسعود ، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وابو موسى الاشعري، وعبدالله بن الزبير، وأنس بن مالك، وأبو هريرة وجابر وعبدالله بن عمرو بن العاص وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين.